لعلها كانت نقطة الضعف لدى فئة من بنات فلسطين اللاتي نشأن في نفس الفترة ونفس الظروف التي عاشتها الكاتبة ، فتاة غضة يانعة في ارضها الحبيبة ، ثم مهاجرة غريبة — غربة الروح والنفس — تكد وتعمل في سبيل العيش الكريم ، وتسعى وتناضل من أجل العودة الظافرة مع جموع اللاجئين ، حيث تأمل ان تنعم بحياة طبيعية سعيدة في مستقبل الايام . ولكن الأيام طالت والسنوات أخذت تكر ، واضطرتها الحياة الى التنازل على المستوى الشخصي ، والرضا والاقتناع بما هو موجود وما هو كائن ، وعاشت حياتها كغيرها من بنات حواء .

وفي الفترة التي شهدت تجربة الوحدة العربية وثورة العراق ثم انتكاسة هذه الثورة ، خرجت الى النور مجموعتها القصصية الثالثة التي اعتبرت تتمة للمجموعة الثانية ، سواء في موضوعاتها التي استقتها من الواقع المحيط بها والذكريات المخزونة في عقلها الباطن من أيام الطفولة ، أو في أسلوب السرد والحوار المحكمين والبناء الفني المتقن . وحملت السنوات الثلاث التالية مزيدا من التجارب والاحداث في حياة الكاتبة ومن حولها في بيروت ، وعاشت سميرة حياة ثقافية خصبة كان لثرائها أثر في تطور فنها القصصي خاصة انها عكفت على دراسة اسس هذا الفن ، وترجمت كتابين هامين في القصة القصيرة والقصة القصيرة الامريكية، بالاضافة الى عدد من القصص القصيرة والروايات الامريكية المعروفة والهامة . وكان نتاج هذه الفترة مجموعتها الرابعة « الساعة والانسان » ثم الخامسة التي طبعت بعد وفاتها « العيد من النافذة الغربية » .

يطول بنا الحديث لو اخذنا بتحليل قصص المجموعات الاربع الباقية قصة قصة كما حاولنا في المجموعة الاولى اعلاه . ولذلك يحسن بنا ان نحدد الموضوعات التي طرقتها الكاتبة والاحداث والشخوص التي صورتها ، وكيف استطاعت التعبير عن تلك الاحداث والشخوص والموضوعات في مختلف القصص المتناثرة بين مجموعاتها الاربع ، خاصة ان هناك دائما خيطا رفيعا يجمع بين القصص ، ويعطيها — بصورة عامة — ميزة في سميرة عزام .

سميرة عزام فتاة فلسطينية ، حملت قضية بلدها وعاشت بها متنقلة بين الأقطار : فلسطين كانت حياتها ، وفلسطين كانت مقتلها ومماتها — اذا صح التعبير — وبالرغم من ان القصص الفلسطينية في مجموعتها ليست غزيرة الكم والعدد ، الا انها من حيث الكيف تعتبر قمة في التعبير عن المأساة منذ أول وقوعها ، واحداث التشرد واللجوء ونفسية الفلسطيني وما تعرض له من ضغوط وظروف قاسية ومريرة ، قابلها جميعا بالصبر والعمل والصمود تارة ، والحقد والثورة والتمرد تارة اخرى . هناك قصتان تصوران كفاح ابناء فلسطين ونضالهم ضد قوى الشر والطغيان ، الاولى منهما تحكي قصة معلم شاب من ابناء قرية « بتير » في ضواحي القدس ، كان يحمل البندقية في الليل ، يحرس القرية مع رفاقه ويدافع عنها امام خطر الاعتداءات الصهيونية عام ١٩٤٨ . وفجأة نفدت ذخيرته ، ولم يكن امامه الا ان يموت مكانه هو وزوجه وطفله البريء ، او يرحل مع فلول النازحين « في الطريق الى برك سليمان » ، وانتصرت ارادة الحياة ، وفي رقة متناهية تصف القاصة مشاعره ومشاعر زوجه ساعة الرحيل ، مودعين بيتا صغيرا عرف حبهما وكفاحهما المبكر معا ، وحديقة غرساها شجرة شجرة .. ولعلع رصاص الاعداء ، وأصاب صغيره الذي يحمله بين يديه ، وركض بالجسد الميت خشية ان تراه زوجه فتصعق . وتحت شجرة لوز سخية حفر حفرة صغيرة أراحه فيها ثم أهال عليها التراب برفق ، حفنة حفنة « ولم يقرأ صلاة ما ، فقد أخرسه الحقد » .

صورة مؤلمة من صور الهجرة الفلسطينية تكررت كثيرا في تلك الايام . أما قصتها « خبز